كتاب الطهـــــــــــــارة

//الأسبوع الأول//الدرس الأول//السبت ١٤٣٠/١٠/٢١هـ// التسلسل العام للدروس// (١)//

مقدمة الشارح

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:ها نحن نلتقي مجدداً في الدورة الثانية بعد أن أنهينا الدورة الأولى في سنتين ونحو النصف، وشُغل طالب العلم وقته بالعلم الشرعي لا شك أنه من أنفَس القربات ، والليالي والأيام تذهب على كثير من الناس سدى بغير تحصيل ، بل على غالب الناس ، وإن توفيق الله للإنسان أن يسلك هذا الطريق، وأن يرجو به القربى عند الله لهو توفيق عظيم يحتاج من الإنسان أن يشكر ربه، وأن يسأله المزيد من فضله.

سبق وتحدثت عن أهمية الاجتهاد في طلب العلم، والفرق الكبير بين الطالب المجتهد وغيره، ولا أريد أن أتحدث عن هذا الموضوع ، لكن كنت أطالع في كلام السبكي في طبقاته وذهلت عندما وقفت على ترجمة الشيخ أبي بكر القفال الشافعي شيخ الشافعية الذي قال عنه السبكي: (بحر العلوم)، وقال عنه غيره: (إنه لم يأت فقيه في زمنه ولا بعده أفقه منه) ، هكذا هو يقول ولا شك أن في هذه العبارة شيء من المبالغة، لكن حتى تعرف مترلة الشيخ القفال الشافعي له كتب وتصانيف سارت بها الركبان واشتريت بأغلى الأثمان ، العجيب في الأمر الذي وقفت عليه أخيراً أن هذا الرجل لم يبدأ في طلب العلم إلا لما بلغ سنه ثلاثين، وكان قبل ذلك يشتغل قفالاً، يحسن صناعة الأقفال جداً، ثم لما بلغ سن الثلاثين ترك صناعة الأقفال، واتجه إلى العلم وبلغ مترلة عظيمة كبيرة جداً في الفقه الشافعي وفي فقه الخلاف ، انظر إلى اجتهاد هذا الرجل وكيف حصل هذا العلم في هذا الزمن اليسير إلى درجة أن هذا الإمام يقول: (أول ما بدأت في طلب العلم كنت إذا سمعت الشيخ يقول اختصرتُ واختصرتَ لا أعرف الفرق بينهما، ولا أعرف معنى الكلمتين.) فهو لا يفرق بين اختصرتُ واختصرتَ، يعني بدأ من الصفر، ومع ذلك وصل إلى مرحلة متقدمة جداً من طلب العلم.

نحن – إن شاء الله – سنقرأ في كتاب بلوغ المرام .

و جرت العادة أنه قبل البداية بأي متن: أن يكون هناك نوع من المقدمات تمهد للدخول في هذا المتن، وسنبدأ بهذه الممهدات قبل أن نقرأ في المتن، وهي مختصرة نحاول – إن شاء الله – أن لا نطيل فيها؛ لأن هذه المقدمات الإطالة فيها غير مفيد جدا.

نبدأ بترجمة الشيخ الحافظ ابن حجر:

ابن حجر هو: أحمد بن علي بن محمد العسقلاني الشافعي المصري.

ولد الشيخ سنة: ثلاثة وسبعين وسبعمائة **ونشأ** يتيماً بعد الولادة توفيت أمه، ثم لما بلغ أربع سنوات توفي أبوه – رحمه الله – فنشأ يتيماً ، فلما مات أبوه تولاه تاجر من تجار مصر فأخذه ورعاه، ووجهه لطلب العلم، وتعاون معه في إسماعه من المشائخ؛ مع كون الحافظ نشأ يتيماً إلا أنه نشأ في تعفف وصيانة وإقبال وخير وعبادة ، إلا أنه في بداية الطلب اتجه إلى الأدب، ثم انتقل بعد ذلك إلى طلب العلم.

لما بدأ الحافظ ابن حجر بطلب العلم اجتهد اجتهادا كبيراً جداً أكثر مما يتصور الإنسان ، وأنا سأقرأ لكم كلام السخاوي مختصراً في بيان اجتهاد الحافظ ابن حجر، وهو كلام مختصر جدا، وركزت في الترجمة على الجوانب العلمية.

يقول السخاوي (ولاحظ عبارته عن الشيخ ابن حجر): [اجتمع له من الشيوخ ما لم يجتمع لأحد من أهل عصره؛ لأن كل واحد منهم كان متبحراً في علمه، ورأسا في فنه الذي اشتهر به لا يُلحق فيه ، فالتنوخي في معرفة القراءات ، والعراقي في معرفة علوم الحديث ، والهيثمي في حفظ المتون واستحضارها، والبلقيني في سعة الحفظ وكثرة الاطلاع ، وابن الملقن في كثرة التصانيف،

والفيروز أبادي في حفظ اللغة واطلاعه عليها ، والغماري في معرفة العربية ، والعز ابن جماعة في تفننه في علوم كثيرة].

نأخذ من هذا النص عدة أشياء:

- **أولاً**: أنه كان ينتقي ويجتمع علي كبار المشايخ كل واحد في فنه.
- **ثانيا**:أن الشيخ كان متبحراً عالماً في هذه العلوم التي قرئت جميعاً .

ثم يقول:(قرأ على العراقي ولازمه عشرة أعوام) **وأيضاً يقول**:(قرأ عليه ألفيته وشرحها ونكته على ابن الصلاح وأماليه،ثم انتقل بعد ذلك إلى البلقيني،ولازمه فترة طويلة قرأ عليه المنهاج والروضة ومختصر المزني،ثم اتجه وحفظ العمدة والألفية والحاوي الصغير ومختصر ابن الحاجب وملحة الإعراب وغيرها كثير).

اشتهر الشيخ الحافظ ابن حجر بالرحلة فقد رحل كثيراً ، ونحن لا نريد أن نذكر ماذا صنع في كل بلد يكفي فقط أن تسمع معي البلدان التي زارها الحافظ ابن حجر **يقول**: (رحل إلى طوس ، والإسكندرية ، والطور ، وينبع ، وجدة ، ومكة و تعز وزبيد وعدن ، وغزة ، ونابلس ، والرملة ، وبيت المقدس ، والخليل ، ودمشق ، والطالبية) وصنع شيئا كثيرا في كل بلد (طلَبَ وحقَقَ وحفظ وفهم وتابع) في كل بلد كان يترل إليها.

اشتهر الشيخ الحافظ ابن حجر – رحمه الله- بسرعة القراءة فقرأ صحيح البخاري كاملا في عشرة مجالس مدة المجلس: من بعد صلاة الظهر إلي صلاة العصر ، وقرأ مسلم كاملا في يومين ونصف ، وقرأ الطبراني الصغير (بطبيعة الحال) في جلسة واحدة بين الظهر والعصر، فكان سريع القراءة، لكن مع الإدراك والحفظ والفهم.

هذه النقاط المختصرة جداً أحببت أن أنبه إليها.

ننتقل إلى المرحلة الأخيرة وهي وفاته: أصيب الشيخ بمرض مزمن صار معه استفراغ للدم، ومغص شديد فسكت الشيخ واستمر في إلقاء الدروس.

أقول إن الحافظ – رحمه الله – مرض وصبر وسكت واستمر في إلقاء الدروس، مع أن المرض كان شديدا ووطأته قوية علي الشيخ، لكن مع قرب عيد الأضحى مرض مرضاً شديداً حتى أنه – ولأول مرة في حياته – لم يُصل صلاة العيد من شدة المرض، وفي ليلة السبت اليوم الثامن عشر من الشهر الثاني عشر سنة اثنين وخمسين وثمانمائة توفي – رحمه الله – رحمة عظيمة ، ولما أرادوا الصلاة عليه حضر السلطان، والخليفة، والوجهاء، والأغنياء، والعباد، والصالحون ، يكاد يكون خرج من بالبلد جميعا من كبرائهم ومَن دونهم، وصلوا عليه ودفن – رحمه الله – رحمة واسعة، وجزاه خيرا عما قدم للإسلام والمسلمين.

أيضاً فيما يتعلق بالمقدمات.

من الأشياء الضرورية في دراسة متون الحديث:أن يدرك الطالب أن الهدف الكبير من دراسة متون الحديث هي التفقه في الألفاظ النبوية الشريفة،واستخراج المعاني والعلل والأحكام منها ، فهذا هو الغرض الأساس،وهو أمر مهم جدا؛ولذلك سأذكر أنا عدة نقاط تصب في هذا الأمر وهو **بيان أهمية معرفة فقه الحديث** .

نبدأ بهذه النقاط:

- **النقطة الأولى**: فتوى للإمام أحمد، والإمام أحمد فتواه في هذا الشأن عظيمة ومهمة بسبب أنه محدث، يعني مع أنه فقيه محدث، ومع ذلك ستلاحظ ماذا قال لما قورن الأمر بين الحفظ والفهم.

(يقول إسحاق الحربي: سمعت أبا عبد الله يقول: من أراد الحديث خَدَمَه)ولاحظ معي عبارات الإمام أحمد ، (قلت لأبي عبد الله: كم يقنع الرجل أن يكتب من الحديث) إسحاق الحربي يريد أن يسمع ويحفظ ويستكثر من الحديث (قال: قال لي الإمام أحمد: يا

إسحاق خِدمة الحديث أصعب من طلبه قلت: ما خدمته؟ قال: النظر فيه).

التفقه في الحديث وجودة الاستنباط أصعب من الحفظ؛ ولهذا الذين يحفظون كُثر، والذين يستنبطون قلة نادرة في عصر الإمام أحمد فما بالك في عصرنا نحن.

وليبين لنا أن النظر في الحديث واستيعابه لا يحسنه إلا قلة، لاحظ معي ماذا قال الإمام أحمد في إشارته للاهتمام والعناية بفقه الحديث.

قال أحمد بن حنبل للحسين الكرابيسي: (ما فهمنا استنباط أكثر السنن إلا بتعليم الشافعي إيانا).

الإمام أحمد متأخر بعد التابعين وجالَس أمما من أهل العلم والحفظ والفهم – أشراف الناس وساداتهم – **ويقول:** ما فهمنا استنباط أكثر السنن إلا بتعليم الشافعي إيانا! .

يقول:(لولا الشافعي ما عرفنا فقه الحديث)**ويقول:**(كان الفقه قُفلا على أهله حتى فتحه الله بالشافعي).

ويقول صالح ابن الإمام أحمد : (جاء الشافعي يوما إلي أبي يعوده ، وكان عليلا فوثب أبي إليه فقبل بين عينيه – رحمهما الله – ، ثم أجلسه في مكانه وجلس بين يديه) المجلس مجلس الإمام أحمد فأجلسه في المجلس، وهو جلس بين يديه مع أن هذه القصة كانت والإمام أحمد إمام كبير ، **قال:** (فجعل يسائله ساعة، فلما وثب الشافعي ليركب قام أبي فأخذ بركابه ومشي معه (يمشي معه بجانب البغلة)، فبلغ ذلك يحيي بن معين فوجه إلى أبي: يا أبا عبد الله يا سبحان الله أضطرك الأمر إلى أن تمشي إلى جانب بغلة الشافعي؟؛ لأن الإمام أحمد كان إماما كبيرا ،فقال له أبي: وأنت يا أبا زكريا لو مشيت من الجانب الآخر لانتفعت به **قال:** ثم قال أبي: من أراد الفقه فليشم ذنب هذه البغلة).

وقال محمد بن مسلم الرازي: (قدِمت من مصر فدخلت على أحمد بن حنبل : فقال لي: من أين جئت قلت: جئت من مصر ، قال أكَتبت كتب الشافعي قلت:لا ، قال:فلِم؟ ثم قال الإمام أحمد: ما عرفنا ناسِخ سنن رسول الله من منسوخها ولا خاصها من عامها ولا مجملها من مفسرها حتى جالسنا الشافعي).

إذاً هذا هو فقه الحديث، أن تعرف معناه وناسخه من منسوخه وعامه من خاصه.

أخيرا يقول الإمام أحمد ،ولاحظ تركيز الإمام أحمد وكثرة ما ننقل الآن عن هذا الموضوع ، مع أن الإمام أحمد ما يُنقل عنه من العلم قليل وفتاويه قليلة.

يقول الإمام أحمد: (ما كان أصحاب الحديث يعرفون معاني حديث رسول الله ﷺ حتى قدم الشافعي فبين لهم) **ثم قال الإمام أحمد:** (ما أحد مس بيده محبرة وقلماً إلا وللشافعي في عنقه مِنَّة).

اهتمام الإمام أحمد بالشافعي ينبع من أهمية ما صنعه الشافعي، وهو تقريب فقه الحديث ومعرفة مدلولات الألفاظ **هذا أمر.**

الأمر الثاني: وهو ما قبل الأخير حتى تعرف ما سبب اهتمام الإمام أحمد بهذا الأمر نقلت لك هنا نتفاً يسيرة ذكرها الإمام الحافظ ابن القيم في بدائع الفوائد، وأراد منها الإشارة إلى أهمية الاستنباط لكن من خلال أمثلة تطبيقية.

يقول الإمام ابن القيم: (والنبي ﷺ أولُ مَن بَين العلل الشرعية ، والمآخذ ، والجمع والفَرق ، والأوصاف المعتبرة ، والأوصاف الملغاة وبين الدور ، والتسلسل، وقطعهما) يعني كلام يكتب بالذهب !!

ثم قال مدللاً ومبرهناً على هذه القضية بالأمثلة:

- (فانظر إلي قوله ﷺ وقد سئل عن البعير يَجْرب فتَجْرب لأجله الإبل فقال:(من أعدى الأول)، يقول:(كيف اشتملت هذه الكلمة الوجيزة المختصرة البينة على إبطال الدور والتسلسل،وطالما تفيهق وتشدق المتكلم وقرر ذلك بعد اللَّتيا والتي في عدة ورقات

، فقال من أوتي جوامع الكلم:"فمن أعدى الأول".

- **ثم انتقل إلى المثال الثاني قال:** (وتأمل في قصة ابن اللتبية – وهو قول النبي ﷺ أفلا جلس في بيت أبيه وأمه وقال: هذا أهدي لي – كيف يجد تحت هذه الكلمة الشريفة أن الدوران يفيد العلية، والأصولي ربما كدَّ خاطره حتى قرر ذلك بعد الجهد، فدلت هذه الكلمة النبوية على أن الهدية لما دارت مع العمل وجوداً وعدماً كان العمل سببها وعلتها؛ لأنه لو جلس في بيت أبيه وأمه لانتفت الهدية، وإنما وجدت بالعمل فهو علتها).
- **ثم يقول في مثال آخر:**(وكذلك قولهﷺفي اللحم الذي تُصدق به على بريرة هو عليها صدقة ولنا هدية، ففرق في الذات الواحدة وجعل لها حكمين مختلفين باختلاف الجهتين،إذ جهة الصدقة عليها غير جهة الهدية منها).
- (**وتأمل قوله ﷺ في الميتة** إنما حرم منها أكلها كيف تضمن التفرقة بين أكل اللحم واستعمال الجلد، وبين أن النص إنما تناول تحريم الأكل دون استعمال الجلد).

ثم يقول أيضاً – في أمثلة كثيرة –:.

- (**ومن ذلك قوله ﷺ لعمر** وقد سأله عن القُبلة للصائم فقال: "أرأيت لو تمضمضت"، فَتَحتَ هذا إلغاء الأوصاف التي لا تأثير لها في الأحكام، وتحته تشبيه الشيء بنظيره وإلحاقه به، وكما أن الممنوع منه الصائم إنما هو الشرب لا مقدمته – وهو وضع الماء في الفم –، فكذلك الذي منع منه إنما هو الجماع لا مقدمته وهي القُبلة).

وذَكر أمثلة كثيرة يحسن بالإنسان في بدائع الفوائد أن يرجع إليها.

- **يقول في المثال الأخير:** (وتأمل قوله ﷺ للرجل الذي استفتاه عن امرأته وقد ولدت غلاماً أسودا فأنكر ذلك فقال له النبي ﷺ ألك إبل؟ قال: نعم ، قال: فما ألوانها؟ قال: سود ، قال: هل فيها من أورق؟ قال: نعم ، قال: فأنى له ذلك؟ قال:عسى أن يكون نزعه عرق ، قال: وهذا عسى أن يكون نزعهُ عرق).

ثم يقول ابن القيم: (كيف تضَمن إلغاء هذا الوصف الذي لا تأثير له في الحكم وهو مجرد اللون ومخالفة الولد للأبوين فيه وإن مثل هذا لا يوجب ريبة، وأن نظيره في المخلوقات مشاهد بالحس، والله خالق الإبل وخالق بني آدم) ثم قال: (فهذه من أصح المناظرات، والإرشاد إلى اعتبار ما يجب اعتباره من الأوصاف، وإلغاء ما يجب إلغاؤه منها، وأن حكم الشيء حكم نظيره، وأن العلل والمعاني حق شرعاً وقدراً).

مقصود ابن القيم من هذا الكلام النفيس الكبير:

البرهان من خلال الأمثلة على أن الأحاديث النبوية فيها معرفة كيفية التعليل والاستثناء والدَور، وأن فيها من الفوائد المباشرة ما يحتاج الأصولي والمناظر ومن يتكلم في العقيدة إلى وقت طويل في تقريرها.

أخيراً ننتقل إلى مسألة وهي:

أن الإمام أحمد قسَّم أهل العلم بالنظر إلى الحديث وفهمه إلى ثلاثة أقسام، وأنا حينما أقرأ هذه الفتوى أريد منكم أن تفهموا مقصود الإمام أحمد، وأنه لا يريد أن يتكلم في أحد من أهل العلم، وإنما مقصود الإمام أحمد البيان والإيضاح لأنواع أهل العلم بالنظر إلي دراسة الأحاديث واستيعابها.

لاحظ معي (سئل الإمام أحمد عن مالك بن أنس – رحمه الله – فقال: حديث صحيح ورأي ضعيف ، وسُئل عن الأوزاعي فقال: حديث ضعيف ورأي ضعيف ، وسئل عن أبي فلان (هكذا ما أراد أن يسميه) فقال: لا رأي ولا حديث، وسئل عن الإمام الشافعي فقال: حديث صحيح ورأي صحيح).

فقَسَّم العلماء إلى كم قسم؟ إذا استثنينا صاحبنا هذا الذي لا رأي ولا حديث صاروا كم؟ ثلاثة، منهم من يحسن نقل الحديث ويستدل بالصحيح منها لكنه لا يتفقه فيها علي الوجه المطلوب ، ومنهم من يتفقه بلا حديث ، ومنهم من ينقل الأحاديث الصحيحة ويتفقه فيها تفقهاً صحيحاً.

لما كانت هذه العبارة فيها نوع من الإشكال شرح الإمام البيهقي هذه الفتوى شرحا، يقول البيهقي قلت:(إنما قال ذلك أحمد بن حنبل في مالك – رحمهم الله–؛ لأنه كان يترك حديثه الصحيح ويعمل بعمل أهل المدينة في بعض المسائل)

إذاً عرفنا لماذا اعتبره الإمام أحمد رأي ضعيف، لأنه يخالف الأحاديث.

ثم قال: (وقال ذلك عن الأوزاعي – رحمه الله –؛ لأنه كان يحتج بالمقاطيع والمراسيل في بعض المسائل ثم يقيس عليها)

إذاً هو يحتج بأحاديث ضعيفة ثم يقيس فجمع بين الحديث الضعيف والرأي الضعيف.

(وقال ذلك في الشافعي – رحمه الله –؛ لأنه كان لا يرى الاحتجاج إلا بالحديث الصحيح المعروف، ثم يقيس الفروع علي ما ثبت أصلها بالكتاب والسنة الصحيحة والإجماع)

(وقال ذلك في أبي فلان؛ لأنه كان يقول بالحديث الضعيف دون القياس مرة، ويترك الصحيح المعروف للقياس أخرى، فيقول بالقياس مرة ويتركه بالاستحسان أخرى وهذا؛ لأنه كان يرى الحجة تقوم بخبر المجهول وبالحديث المنقطع، فما وقع إليه من ذلك من حديث بلده قال به وترك القياس لأجله، وما لم يقع إليه من صحيح حديث بلده، أو وقع إليه فلم يثق به قال فيه بالقياس والاستحسان).

والحاصل أن الإمام أحمد يقول: ينبغي أن الإنسان يثبت الأحاديث الصحيحة والأصول المعروفة ثم يقيس عليها، وأنه يري أن من أثبت الأحاديث الضعيفة ثم صار يقيس عليها فإنه (حديث ضعيف ورأي ضعيف).

إذا عرفنا أقسام العلماء بنظر الإمام أحمد فهذا يستدعي أن الإنسان يحرص على أن يتمسك بالأحاديث الصحيحة، وهذا يستدعي أن يكون عند الإنسان دراسة صحيحة لكيفية التصحيح والتضعيف، ويستدعي أيضا أن يتفقه في الأحاديث النبوية على مقتضى القواعد الصحيحة.

نحن نرى الآن مصداقاً لكلام الإمام أحمد: أن بعض العلماء يثبت الأحاديث الضعيفة، وينقل لنا حديثا لا يصح ثم يثبته من خلال شواهد أو أقيسة أو متابعات أو.... إلخ، ثم يبني علي هذا الحديث الضعيف فقه كثير أليس كذلك؟ وهذا كثير ؛ ولهذا تجد فتوى مستغربة لعالم ما ثم لما تبحث في السبب تجد أن السبب أنها مبنية على حديث ضعيف، وهذا الذي يريده الإمام أحمد، لا تُثبت حديثا بطريقة غير صحيحة في التعليل والتصحيح والتضعيف ثم تبني عليه مسائل فقهية شاذة،وهذا – كما قلت – يقع كثيرا.

هذا ما أردت أن أقدم به بالنسبة لمتن البلوغ، ونشرع الآن مستعينين بالعزيز الجبار بقراءة هذا المتن، وأرجو – بإذن الله – أن نُتم المتن في المدة المقررة له – بإذن الله –.